مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية
Eissn :2600-643x Issn : 2353-0529
المجلد 10 / العـدد: 3 (2022)، ص: 53-69

ملامح الحداثة الأوروبية: الإصلاح الدّيني والاكتشافات العلميّة كنموذجين

Features of European modernity: religious reform and scientific discoveries are two models

سفيان البراق[1]

[1] جامعة شعيب الدكالي، الجديدة (المغرب)،

soufianelbarrak.98@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/09/06 تاريخ القبول: 06 /2022/09 تاريخ النشر: 2022/09/23

ملخص:

تحاول هذه الدّراسة تعقب ورصد الملامح الأولى للحداثة الأوروبية التي تجسدت أساساً في ثورتين كبيرتين ابتداءً استعَرَت شرارتهما خلال القرن السادس عشر، أولاها: الإصلاح الديني الذي رام فكّ الإنسان من رقابة الكنيسة وإلغاء سلطة رجالها، ليكرس مبدأ الذاتية والفردانية، ويصبح العقل حينها هو المقياس والمرجعية الأولى في الحكم عن الأشياء. لقد نجح الإصلاح الديني، بزعامة مارتن لوثر، في منح الإنسان قدراً مهماً من الحرية لينعتق من سلطة الكنيسة التي احتكرت تأويل النّص المقدّس، ونصّبت نفسها وسيطاً لا محيد عنه بين الإنسان والرّب. وثانياً الثورات العلمية، والعالم البولندي نيكولاس كوبيرنيكوس أبرز روّادها، التي أسهمت بشكلٍ كبير جداً في تبلور فكرة الحداثة وقد تحقق ذلك من خلال الإسهام الذي قام به كوبرنيكوس، بوصفه نموذجاً بارزاً لهذه الثورات، حيث استطاع تدشين عصر العلم الحديث الذي صار يفسِّرُ الظواهر بالاعتماد على "مفاهيم عامّة ومُجرّدة". كما أنّ نظريّة كوبرنيكوس اتّسمت بالجدة التي تتمثّلُ أساساً في انتصارها للعقل بحسبانه المرجع الأول للمضي في اتجاه المعرفة والحقيقة، ثم إنّ كوبرنيكوس يعدّ الفلكيّ الأوّل الذي نجح، باقتدار، في تشييد نظامٍ رياضي لحركة الكواكب من منظور مركزيّة الشّمس، ليتمكّن من تفنيد

طروحات أرسطو وبطليموس التي زعمت أنّ الأرض هي مركز الكون، في حين أنّ كوبرنيكوس سار في اتجاه معاكس وأكّد على مركزيّة الشّمس، وقد وصل إلى هذه النّتيجة بعد أنْ اتّفق في البداية مع نظريّتهمَا.

الكلمات المفتاحية: الحداثة – الإصلاح الديني – الاكتشافات العلمية – العقل.

Abstract :

This study attempts to track and monitor the first features of European modernity that were embodied mainly in two major revolutions starting in the fifteenth century, namely: the religious reform, which sought to free man from the control of the church and abolish the authority of its men, to devote the principle of subjectivity and individuality, and then the mind becomes the standard and the first reference in governance about things. The religious reform, led by Martin Luther, succeeded in granting man an important measure of freedom to be freed from the authority of the Church, which monopolized the interpretation of the sacred text, and established itself as an indispensable mediator between man and God. The scientific revolutions, and the Polish scientist Nicholas Copernicus, the most prominent pioneer of them, have contributed greatly to the crystallization of the idea of modernity, and this was achieved through the contribution made by Copernicus, as a prominent model for these revolutions, as he was able to inaugurate the era of modern science, which began to explain phenomena by relying on General and abstract concepts. The Copernican theory was also characterized by novelty, which is mainly represented in its victory for the mind as the first reference to proceed in the direction of knowledge and truth. Moreover, Copernicus is the first astronomer who succeeded, ably, in constructing a mathematical system for the movement of the planets from a heliocentric perspective, to be able to refute the theories of Aris She claimed that the Earth is the center of the universe, while

Copernicus walked in the opposite direction and emphasized the centrality of the Sun, and he reached this conclusion after initially agreeing with their theory.

Keywords: modernity - religious reform - scientific discoveries - reason.

المؤلف المرسل: سفيان البراق

تقديم:

لقد تشكّل مفهوم الحداثة كنتيجة لمجموعة من التحولات النّوعية والجذرية التي شهدتها أوروبا، والتي امتدّت من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. فهو مرادف للجدّة والتخلي عن الماضي، وابتداع أشياء لم تكن مألوفة من قبل. وقد شملت هذه التحولات مختلف المجالات: المجتمع، السياسة، الاقتصاد، الفكر والثقافة. ولأنّ الحداثة هي شيء مبتكر وجديد، فمن الطبيعي أن تثير لغطاً في كل بيئةٍ تحاولُ اقتحامها ونشر مبادئها ومقوّماتها فيها. ولذلك حاولتُ جرد التحولات التي أدّت إلى تكوّن مسار الحداثة الأوروبية، وعلى رأسها الإصلاح الديني، مقتصراً فيه على التجربة الإصلاحية الهامّة مع المصلح الألماني مارتن لوثر، باعتباره قد نجح، بشهادة جميع البحاثة تقريباً، في تحقيق إصلاحٍ ديني قطع مع سلوكيات وتمثُّلات قديمة تحدُّ من حرية الإنسان وتسلبه قيمته الطبيعية. ولأنّ الحداثة اقترنت بالاكتشافات العلمية، فمن غير المقبول أن أهملها، لذلك وقفتُ عندها مختصراً إيّاها في نموذجٍ متطيّر الشّهرة، ألا وهو العالم البولندي نيكولاس كوبرنيكوس، باعتبار إسهاماته التي تعتبرُ تحولاً راديكالياً في تاريخ العلوم. كما اتّسمت أطروحته بالجرأة؛ فقد فنّدت طروحات الأقدمين (= أرسطو – باطليموس) حول نظرية الأرض كمركزٍ للعالم.

لقد ارتكزت الحداثة أساساً على الاعتراف بالفرد ككيان مستقل قائم بذاته، يمتلك الحقّ في أخذ المُبادرة، كما أنه يتمتّع بهويّة تخوّل له التمتع بممارسة

باختياراته بشكلٍ حرّ. كما ارتكزت على العقل كمنطلق وكمرجعية للقياس، بالإضافة إلى عدم احتكار الحقيقة؛ إذ لم يعد أحد يملكها، وبالتالي صارت متاحة للجميع ومتصفة بالنّسبية.

وردت لفظة حداثة في لسان العرب لابن منظور كدلالةٍ على "حداثة السّن"[1]، فعندما نقول على سبيل التمثيل: الشابّ حديث السّن، فمعنى ذلك أنّه لازال شخصاً فتياً وغضاً ولم يشتدّ عودهُ بعد. فقد عرّف هذا الأخير لفظة الحديث بأنّه "الجديد من الأشياء"[2]، أي الشيء الذي لم يكُن معروفاً من قبل ولا مألوفاً عند النّاس، فانبثق بشكلٍ مُفاجئ. وفي السياق ذاته يُضيف صاحب معجم لسان العرب قائلاً: "الحديثُ نقيضُ القديم، والحُدوثُ نقيضُ القُدمَةِ"[3].

إن ما يمكنُ استشفافهُ من التعاريف الّتي قدّمها ابن منظور لاشتقاقات مفهوم الحداثة هو أنّ هذه الأخيرة تدلُّ على الشّيء الجديد والبدايات الأولى لتشَكُّلهِ، وهذا ما يتأكّد لنا في المعجم الوسيط الذي نقرأ فيه: "يُقالُ يأخذ الأمر بحداثته: بأوّله وابتدائه"[4].

وتأسيساً على ما سبق، نستخلصُ أنّ الحداثة تدلُّ على الشّيء الجديد الذي لم يعهدهُ المجتمع من قبل، وهو ما سيؤدي حتماً، إلى تغيرات لن تستثني أي شيء. فالحداثة في أوروبا بدأت بمجموعة من الثورات، التي بزغت لأوّل مرة بشكلٍ أكثر تأطيراً، والتي مهّدت لها إلى أنْ اكتمل نُضجها وأرَخت بظلالها على مختلف أصقاع العالم، مثيرة اللغط حينها، على اعتبار أنّ منظومة الحداثة تحملُ قيّماً جديدة تختلفُ عمّا هو سائد. لقد أدّت الحداثة إلى تمجيد العقل والحريّة، وإعادة الاعتبار للفرد كذاتٍ مُستلِّقة، كما غيّرت بنية الدولة اجتماعياً واقتصادياً

---

[1] ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ص 796.

[2] المصدر نفسه، ص 797.

[3] المصدر نفسه، ص 796.

[4] **المعجم الوسيط**، مجموعة مؤلّفين، مكتبة الشروق الدّولية، القاهرة، ط 4، 2008، ص 160.

وسياسياً. فالتحوّل الذي طرأ على بنية الدولة سياسياً، على سبيل المثال، تجسّد في الانتقال من دولةٍ تكون فيها السلطة في يد الحاكم، والمحكوم منقاد لهذه السلطة إلى دولةٍ قوامها التعاقد السياسي المؤسس على تداول السلطة من خلال تنصيب حاكم لفترة زمنية محددة، ثم تنحيته بواسطة الانتخابات، وذلك من أجل الفرد الذي بدأ ينفصلُ عن الجماعة باحثاً عن استقلاليته المفقودة.

1-الإصلاح الديني:

لقد أدّى الإصلاح الدّيني إلى تحوّل راديكالي في الذّهنيات بأوروبا، بعدما ارتدّ في وجه الكنيسة التي تموجُ بظُلمها ومارستْ حيفاً شنيعاً في حقِّ الفرد الأوروبي حيث قلّصت من هامش حريّته، وفرضت عليه الخضوع لشروطها وبنودها عنوةً. قبل أنْ ينبلج عصر الإصلاح الديني في أوروبا مع عدّة مُصلحين على رأسهم: المُصلح الألماني "مارتن لوثر" (1483-1546)، الذي نهل من الكنيسة وتعاليمها ما تيسّر له، وتبنّى كل ما يرتبط بالدين المسيحي، ليخبرنا التاريخ أنّه كان راهباً مرموقاً في المذهب البروتستانتي، ولاهوتياً كبيراً آنذاك. ظلّ لوثر يُعاينُ عن قرب بعض الأفعال التي يقوم بها القساوسة في ألمانيا تحديداً، وهي تسيء للدين المسيحي، وتروّجُ عنه صورة حالكة، وخيرٌ مثال عن هذه الأفعال التي اعتادت الكنيسة على القيام بها لردحٍ من الزمن ونجد في مقدمتها: بيع صكوك الغُفران بوصفها الطريقة الوحيدة لخلاص الفرد من الخطيئة، ثم الوساطة التي لعبها رجال الدين بين الفرد والرّب، وهي وساطة مزيّفة، لكونها تقوم على استغلال خوف الأفراد وجهلهم.

عمِل لوثر على مناهضة هذه الأفعال، من خلال ضرب تلك الوساطة التي شرعنها القساوسة دون وجه حق، وغايته من وراء ذلك "هي إعادة تشكيل صورة أصدق للمسيحية في ألمانيا، عوضاً عن مسيحيّة العُصور الوسطى التي بدت له

مليئة بالفساد والخُرافات"[5]. إنّ رغبة لوثر، إذن، هي محاربة تلك الطّقوس التي استولت على عقل الفرد الأوروبي، وهي طقوس تتنافى كلياً مع التفكير العقلاني، ونذكر منها، على غرار ما ذكرته آنفاً: "صلوات القدّاس في روما "شأنها شأن صكوك الغُفران التي تُقدّم هناك – قادرةٌ على تخليصهم من آثامهم. فقد شاع في روما مثلٌ قائل: بوركت الأم التي يقرأ ولدها القدّاس يوم السّبت في سانت جونز"[6]. شكّلت صكوك الغُفران ذريعةً تحجّج بها القساوِسة لتعزيز سُلطتهم ورقابتهم على الفرد، وهذا يعني استلاب حريّته، وهذا ما أكّده لوثر أيضاً الذي رأى فيها "إعاقة ما يجبُ أنْ يقوم من علاقةٍ مُباشرة بين الأفراد، وبين الرّب"[7]. يرى مارتن لوثر في هذا المضمار أنّ التجربة الدّينية تقتضي التواصل المُباشر مع الرّب بلا حاجةٍ إلى وسيط، لهذا فقد أكّد بإقرارٍ كبير جداً أنّه يجبُ على الأفراد "أنْ تكون لديهم علاقةً مُباشرة مع الرّب تقومُ على الإيمان الذي يُطهّر النّفس يُتيح لنا حبَّ الله"[8]. يُستشفُّ من قول لوثر أنّه قد دافع باستماتة كبيرة، سواء بشكل مباشر أو ضمنياً، عن حُرية الضمير للفرد واستقلاليته عن أي رقابة أو وصاية مُحتملة. لقد أكّد مارتن لوثر، في سياق نقده لصكوك الغُفران، على أن هذه الصكوك ليست هي التي "تبرأنا أمام الله، ولكن ما يُبرئنا هو الإيمان وحدهُ. والإيمان هبةٌ من الله وليس شيئاً يستطيعُ الإنسان أن يخلقه لنفسه"[9]. لقد ضرب مارتن لوثن عُمق صكوك الغُفران بتأكيده على أنّها لا تُجدي نفعاً أمام الرّب، باعتبار أنّ الإيمان

---

[5] سكوت إتش هندريكس، **مارتن لوثر: مقدمة قصيرة جداً**، ترجمة: كوثر محمود محمد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثّقافة، القاهرة، ط 1، 2014، ص 27.

[6] سكوت إتش هندريكس، **مارتن لوثر: مقدمة قصيرة جداً**، المرجع نفسه، ص 32.

[7] ستيفن ديلو، **التفكير السياسي والنّظريّة السياسية والمُجتمع المدني**، ترجمة: ربيع وهبة، القاهرة، 2000، ص 137.

[8] المرجع نفسه، ص 137.

[9] ليو شتراوش – جوزيف كروبسي، **تاريخ الفلسفة السياسية**، ج 1: من ثيوكيديديس حتى اسبينوزا، ترجمة: محمود سيّد أحمد، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، ط 3، 2005.ج 1، ص 463.

وحدهُ الكفيل بنجاح التواصل بين الإنسان وربّه، لأنّ هذا الإيمان هو هِبةٌ من الله وحده. يقصدُ لوثر هنا بالإيمان: "الثّقة في وعود الرّب التي تحقّقت بيسوع المسيح"[10].

لم يقتصر لوثر على التصدّي للكنيسة، والتنديد بإجحافها في حقّ الفرد، بل حاول منع الدّولة حتى لا "تستخدم سُلطتها للتدخّل في تعاليم الكنيسة وإقرار قوانين النّفس"[11]. يقصد لوثر بقوانين النّفس، في اعتقادي، كلّ ما هو جوّاني وداخلي يخصُّ الفرد لوحده ولا يمتّ للفضاء العام بأيّة صلة، ونظراً لهذه الخُصوصية التي تطبع هذه القوانين، فقد حاول لوثر تمتيع صاحبها بالحريّة بمنأى عن أيّ تقييد مُحتمل. ألا يُمكنُ أن أقول، إذا جاز لي التعبير، إنّ تصوّر لوثر للدّين ومُحاولة إبعاد الكنيسة والدّولة عنه تلميحاً بارزاً عن فكرة العلمانية التي ستنشأ بشكلٍ فعلي خلال القرن السابع عشر، وستزحفُ في اتجاه جميع الأقطار الأوروبية، وستجدُ من يتبنّاها لتُحدثُ فصماً تاريخياً في أوروبا، لأنّها كانت الحل الأنجع لتحقيق السّلم بعد الحروب الدينية الدّاميّة التي شهِدتها أوروبا.

يرى لوثر أنّ الفرد المُعتنق للمسيحية هو حرٌّ، ولا يحقُّ لأيّ أحد أنْ ينتهك حريّته، ويعيشُ أيضاً "وِفقاً للإيمان، منعتق من كلّ قانون، ومن كلّ أمر"[12]. لقد أدّت عدّة أسباب إلى بروز تيارات الإصلاح الدّيني، ويمكنُ إجمالها في الآتي: "عدم التعاون مع السّلطات في المُجتمع المعتبر فاسداً (...) البحث في الإنجيل عن مبدأ تنظيم اجتماعيّ شكّلت مع نقمة الأوساط الشّعبيّة، خليطاً مُتفجراً. وتزامنت حربُ الفلاحين التي بلغت ذروتها سنة 1525م (...) وفي الحالتين، كان البؤس هو دافع العُصاة: الحرفيون والحوانيتيون ضد الأرستقراطية البلدية والتجارية، والفلاحون

---

[10] سكوت إتش هندريكس، **مارتن لوثر: مقدمة قصيرة جداً**، المرجع نفسه، ص 36.

[11] **التفكير السياسي والنّظريّة السياسية والمُجتمع المدني**، المرجع نفسه، ص 140.

[12] جان توشار، **تاريخ الفكر السياسيّ**، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ترجمة: علي مقلد، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، ص 215.

ضدّ أسيادهم"[13]، إضافة إلى الهزيمة التي مُنِيَّ بها الجيش العُثماني سنة 1526م، دون إهمال احتكار الباباوات للسلطة، وخيرُ مثالٍ على هذا هو البابا إينونست الثالث الذي زعم أنّه أعلى مرتبة من الملوك والحكّام أنفسهم، وسلطتهُ سلطة مطلقة، واحتكر سلطة الكنيسة، وأكّد على أنّ "كلّ سلطة دنيويّة تنبعُ منه"[14]، ليكون بذلك من أكبر الباباوات تأثيراً في تاريخ الدين المسيحي. ولا غرو إذا قلت إنّ هذه السلطة المُطلقة التي ادّعاها البابا إينونست الثالث أجّجت من حدّة المُطالبة بالحدّ من هذه السلطة، إلى أنْ جاء الإصلاح الديني الذي غاص في هذه المُعضلة ونجح في حلِّها، ليكون بذلك الإصلاح الديني من داخل الدين وليس من خارجه، وهذه إحدى أسباب نجاحه.

لم يكتفِ الباباوات باحتكار السّلطة ومُمارسة الوصاية، بل الأطم من ذلك هو استغلال المسيحيين الفقراء المثقلين بهموم الحياة، من خلال الاستفادة من عائدات صكوك الغُفران لتشييد الكاتدرائيات دون الاكتفاء بواحدة أو اثنتين، وهذا ما عجّل بانتفاضة لوثر بقوّة في وجههم. وتجدرُ الإشارة، في هذا السيّاق، إلى أنّ "أطروحات لوثر الخمسة والتسعين لم تُهاجم الدّعاة لصكوك الغُفران وحسب، بل هاجمت أيضاً بابا الكنيسة الرّومانية لسماحه بمنح هذه الصكوك نظير أموالٍ رُصدت لتشييد كاتدرائية سانت بيتر في روما (...) وتساءل لمَ لا يُشيّد البابا الكاتدرائية بأمواله الخاصّة بدلاً من أموال المسيحيين الفقراء، فكان يجبُ أنْ يُعلَّم المسيح أنّ إخراج الصّدقات والمُحتاجين خيرٌ من شِراء صكوك الغُفران"[15].

---

[13] المرجع نفسه، ص 217.

[14] **تاريخ الفلسفة السياسيّة**، ج 1، المرجع نفسه، ص 471.

[15] سكوت إتش هندريكس، **مارتن لوثر: مقدمة قصيرة جداً**، المرجع نفسه، ص 34.

نستخلصُ من هذه الثورة الدينية التي تزّعمها مارتن لوثر أنّها جاءت أساساً من أجل إعادة اكتشاف الإنسان ومنحه أقدس الحقوق؛ عنيت: الحريّة، وضمانِ استقلاليّته بعيداً عن الوِصاية التي تعرقلُ مسارهُ الإنساني نحو التقدم وبناء غدٍ تكون فيه حريّة الفرد الدينيّة فوق كلّ اعتبار. إنّ استقلاليّة الفرد لا تتحقق إلّا بوجود حريّة الضمير؛ أي حريّة الفرد في الاختيار، وترمزُ أيضاً إلى أنّ كلّ فردٍ له إيمانه الخاص والتمثلات التي تُعبّرُ عنه. لقد نجح لوثر في الحدّ من جور الكنيسة وطغيانها الدّيني، وحاول جاهداً إبعادها (= الكنيسة) عن كل ما يرتبطُ بالفضاء المدني، كما نجح في تحقيق المساواة بين المسيحيين وألغى التراتبية بينهم، كما عمل على إنهاء التراتبيّة الدّينية في الكنيسية، وأكّد على العلاقة المُباشرة بين الفرد والرّب. كما يتّضح لنا، من خلال نقد لوثر للكنيسة وطقوسها، أنّها قد فقدت الحُظوة التي كانت تتمتّع بها في زمنٍ انصرم وتخلّى، وخسِرت مصداقيّتها لأنّها تاجرتْ بالمُقدّس واستغلّت ضعف الأفراد وتوجّسهم منها. نقرأ في هذا المضمار، من رسالة مارتن لوثر إلى البابا ليو العاشر: "الإنسان المسيحي سيّد كل الأمور، إنه حرٌّ لا يخضعُ لأحد"[16]. وأكد في نفس الرّسالة على أنّ "المسيحي المثالي هو من يجعلُ إيمانهُ سيّد الأحرار ولا يخضعُ لأيّ كان"[17].

سيلعبُ الإصلاح الديني، بوجه آخر، دوراً محورياً خلال القرن السابع عشر، وذلك يتجلّى في إيقاف الحرب الدّامية التي نشبت بين الكاثوليك والبروتستانت، وقد استمرت لثلاث عقودٍ كاملة، قبل أنْ تتبلور فكرة العلمانيّة، التي يمكن اعتبارها امتداداً أساسياً للإصلاح الديني، وقد لا يختلف حول هذه المسألة اثنان. لقد وضعت العلمانية الحجر الأساس لفصل ما هو دنيوي عن كل ما هو مقدس، لتخبو نار الاقتتال بين المذهبين: الكاثوليك والبروتستانت. يقول

---

[16] مارتن لوثر : **http://www.lutherinarabic.org/freedom.htm**

[17] سكوت إتش هندريكس، **مارتن لوثر: مقدمة قصيرة جداً**، المرجع نفسه، ص 41.

جون لوك: "إن رعاية النّفوس وخلاصها ليست من شؤون الحاكم المدني أو أي إنسان آخر، ذلك أنّ الحاكم ليس مفوضاً من الله لخلاص نفوسِ البشر، وأنّ الله لم يُكلِّف أيّ إنسان بذلك، لأنّه يبدو أنّ الله قد منح مثل هذه السّلطة بحيث يفرضُ دينهُ على الآخرين بقوّة (...) كما أنّ رعاية النّفوس ليست من شؤون الحكم المدني لأنّه يحكم بمُقتضى سُلطة برّانية، بينما الدّين الحق الذي ينشدُ خلاص النّفوس ينشدُ اقتناع العقل اقتناعاً جوَّانياً"[18]. هنا بدأت ملامح العلمانية تتبدّى بشكلٍ بارز جداً، بحُسبانها امتداداً للإصلاح الدّيني، ترنو إلى جعل الدين حبيس الفضاء الحميمي للفرد دون أنْ يقتحم الحياة السياسيّة والمدنية، حتى لا تتكرر سلطة الباباوات المُطلقة أو تندلع شرارة الاقتتال مجدداً التي أزهقت أرواحاً بريئة.

لقد كان الإصلاح الديني، إذن، مرتكزا أساسياً من بين عدّة مرتكزات؛ الثورات السياسية، الثّورة العِلميّة، بعث التراث الإغريقي في جميع صنوف الإبداع والنّهل منه، التي أدّت إلى تبلور فكرة الحداثة التي ستجعلُ أوروبا تعيشُ تحوُّلاتٍ راديكاليّة في مختلف مناحي الحياة. ولهذا نجد أنّ عدداً من المفكرين العرب الذين ينشدون الانغمار في الحداثة ويبتغون تبني قيّمها ومبادئها، يعتبرون أنّ الإصلاح الديني كان أحد أهم العوامل التي أدّت إلى تشكّل ملامح الحداثة، إلى أنْ أخذت تنتشِر. وقد اعتبر عبد الله العروي، أحد أبرز أعلام الحداثة في الفكر العربي المعاصر، أنّ الثّورة الدّينية أو الإصلاح الديني لا يمكنُ فصله عن الحداثة لأنه جدد الدين وألغى احتكارات الكنيسة؛ إذ يقول عنه أنّه كان "مُوجّها ضدّ الكنيسة واحتكارها التأويل المُقدّس"[19]. وإجمالاً يمكنُ القول إنّ ما حقّقه الإصلاح الديني مع لوثر هو الذي أدى إلى مجموع التحولات سواء تلك التي لها صلة بالحقل الديني

---

[18] جون لوك، **رسالة في التسامح**، ترجمة: منى أبو سنه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 1997، ص – ص 24 – 25. (مع بعض التصرّف).

[19] عبد الله العروي، **نقد المفاهيم**، المركز الثقافي للكِتاب، الدار البيضاء، ط 1، 2018 ص 134.

أو التي شملت ميادين أخرى. وذلك راجع إلى أنّ هذه الثّورة قد ساعدت "على تهديم بناء الإيديولوجيات السياسيّة الوسيطيّة (...) وفي الزعزعة التي أحدثها التجديد في الدّين، ظلّت العلاقة الضيّقة بين الرّوحي والزّمني، والأولية الإيديولوجية للديني على السياسي مسيطرة على الأذهان"[20].

2- الاكتشافات العلمية: كوبرنيك نموذجاً:

يحتلُّ العالِم البولندي كوبرنيكوس (1473-1543م) مكانةً فريدة في تاريخ العلوم الحديثة، نظراً للإسهام الجوهري والهام الذي قام به عندما فنّد نظريّة بطليموس الذي زعم في زمنٍ ولّى، أنّ الأرض هي مركز الكون، وظلّ هذا الاعتقاد سائداً إلى حدود القرن السادس عشر، وذلك عندما أعلن كوبرنيكوس نهاية هذه النّظرية وقوّضها استناداً على قرائن علميّة ومنطقية، ليفتح الباب على مصراعيه لثورة دامت "144 سنة من المناقشات النّشِطة والبحث لتُصبح راسخة (...) ما يهمّ بشأن الثّورة ليس طول المدّة التي تستغرِقُها، وإنّما عُمقها. فما يجعل التغيير ثورياً هو الإرباك الذي يُحدثهُ في البنيّة الرّاسخة، قلب وجهات النّظر، استبدال المُسلّمات"[21].

قبل بطليموس الذي قال بمركزية الأرض، كان تصور أرسطو الذي يقرّ بنفس التصور مهيمناً لردحٍ من الزمن، وقد أكد هذا الأخير وجود فلكين في هذا الكون؛ "الفلك فوق القمري الذي يضمُّ القمر والمنطقة الواقعة خلفه، والفلك تحت القمري، وهذه هي المنطقة بين الأرض والقمر. والأرض هي فلك صغير يقبعُ ثابتاً في المركز الهندسي لفلكٍ دوّار أكبر بكثير يحملُ النّجوم"[22].

---

[20] جان توشار، **تاريخ الفكر السياسي**، المرجع نفسه، ص 214.

[21] فريدل فاينرت، **كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخِ وفلسفةِ العلم**، ترجمة: أحمد شكل، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط 1، 2019، ص 15.

[22] المرجع نفسه، ص 16.

تحدث أرسطو في كتابه "الطبيعة" عن الأفلاك العليا (الفلك فوق القمري)، وعن الظواهر السفلى، والتي يقصدُ بها الفلك تحت القمري"[23]. لقد قامت نظرية أرسطو حول الكون على تصور "البصلة الكونية"[24] التي تشي بأنّ الأرض هي لبُّ العالم وتظل ثابتة. أمّا الكواكب، فتلتفُّ حولها كما يلتفُّ السوار على المعصم.

لقد شيّد بطليموس نظريته حول مركز الأرض منطلقاً في ذلك من الإسهام الأرسطي، وأضاف إلى ذلك اختراع "أجهزة جديدة هندسية: الدوائر اللامتراكزة، وأفلاك التدوير والمؤجلات والموازنات"[25]. تكمنُ قيمة باطليموس في تاريخ العلم بحسبانه "الفلكيّ الأوّل الذي يُصمِّمُ نظاماً رياضياً كاملاً للكون، وقد تنبّأ بحركات الكواكب بدقّة في حدود خمس درجات من القيم الحديثة. كان نموذجاً يعتمدُ على مركزية الأرض مبنياً عن طريق المنطق الهندسي (...) وهذا الأخير؛ عنيت: المنطق الهندسي هو الذي سيعتمدُ عليه كوبرنيكوس خلال بناء نظام مركزيّة الشّمس"[26].

انطلاقا من هذه الاكتشافات الجديدة، يعتبرُ بطليموس ممهداً بشكلٍ من الأشكال للعلم الحديث، فلولا نظريته تلك، لما تمكّن كوبرنيكوس من رسم معالم ثورته، بحيث انكب على فهم نظرية باطليموس قبل أن يعمل على دحضها.

بدأ كوبرنيكوس نظريّته بالتأكيد على كرويّة الأرض، التي سبق وأكدها أرسطو وبطليموس، وهذا يظهرُ بجلاءٍ عندما يقول: "ليس العالم فقط هو الكروي، ولكن الأرض كذلك"[27]. وبدأت ملامح نقد كوبرنيكوس لبطليموس تتبدّى من خلال رفضه القاطع لفكرة الموازنات[28].

---

[23] أرسطو، **الكون والفساد**، ترجمة: أحمد لطفي السيّد، الدار القومية للطباعة والنّشر، القاهرة، ص 215.

[24] فريدل فاينرت، **كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخِ وفلسفةِ العلم**، المرجع نفسه، ص 18.

[25] فريدل فاينرت، **كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخِ وفلسفةِ العلم**، المرجع نفسه، ص 19.

[26] المرجع نفسه، ص 22. (مع بعض التصرف).

[27] ورد هذا القول في: ويليام تي فولمان، **وداعاً مركزية الأرض: كوبرنيكوس ودورات الأجرام السماوية**، ترجمة: أسامة فاروق حسن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط 1، 2015، ص 30.

[28] ينظر: **وداعاً مركزية الأرض: كوبرنيكوس ودورات الأجرام السماوية**، المرجع نفسه، ص 63.

إنَّ تاريخ العلم هو تاريخ الامتدادات، وهذا ما نستخلصه من نظرية مركزية الشمس التي لم يكن كوبرنيكوس سبَّاقاً لاكتشافها، بل سبقه إلى ذلك عالم الفلك الإغريقي أرسطرخس الساموسي الذي رسم ملامح نظام شمسيّ المركز للكون، فيه تدور الأرض يومياً حول محورها وسنوياً حول الشمس"[29].

قد يزعم أحدهم ويقول: لم تكن هناك جدّة واضحة المعالم في نظريّة كوبرنيكوس. ويُفهم هذا الأمر من قول فريدل فاينرت. غير أن الجدّة التي طبعت نظريّة كوبرنيكوس تتمثّلُ أساساً في انتصاره للعقل بوصفه المرجع الأول للمضي في اتجاه المعرفة والحقيقة، ثم إنّ كوبرنيكوس يعتبرُ "أوّل عالم فلكٍ يُشيد نظاماً رياضياً لحركة الكواكب من منظور مركزيّة الشّمس. كما حاول استنتاج كلّ الظّواهر السّماوية من عددٍ قليل من الاعترافات الأساسيّة"[30]. كما اتّسمت نظريته بعدّة خواصٍ جعلتها متفردة ودفعتها إلى المقدمة مقارنةً بإسهاماته. من سمات هذه الخواص، أنّها "تُفسِّرُ فكرة الأرض المُتحرِّكة دورانها اليومي والسّنوي على نحوٍ طبيعيّ كل المُشاهدات السماوية (...) ثم يُحدّد المسافة النّسبية لبُعد الكواكب عن الشّمس ينبغي أنْ يُحدّد من واقع فترته المدارية. وبهذا يرفضُ ممارسة استخلاص المسافات الكونية التي تعود للقرون الوسطى من خلال طريقة بطليموس الخاصة بتداخل الدوائر السماوية بعضها في بعض"[31].

إنّ الإسهام القويّ لـ كوبرنيكوس بدأ بتشابكه مع التصوّرات القديمة التي حاولت تفسير الكون وتفكيك بنيته وديناميته، فقد استند عليها ونهل منها، كما فعل مع نظرية بطليموس، قبل العمل على نقدها، لتكون هذه هي البداية الفعلية والرّسمية لنشأة العلم الحديث، وقد مهّد الطريق لنظريات ستنمو على ضوء

---

[29] فريدل فاينرت، **كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخِ وفلسفةِ العلم**، المرجع نفسه، ص 37.
[30] المرجع نفسه، ص 38. (مع بعض التصرف).
[31] المرجع نفسه، ص 40.

إسهامه؛ كتلك الخاصة بالعالِم الإيطالي جاليليو (1473-1543)، والفيزيائي الإنجليزي إسحاق نيوتن (1643-1727). وقد تسلّم هذان العلَمان مشعل العلم الحديث وحملاه إلى برّ الأمان.

لقد مثّلت إذن، نشأة العلم الحديث على يد العالم البولندي كوبرنيكوس أحد أبرز العوامل التي ساهمت بشكلٍ قويّ في تشكّل فكرة الحداثة، لأنّ في هذه اللحظة بدأت تظهر الإرهاصات الأولى للانفلات من سطوة المؤسسة الدينية التي مضت في غيّها خلال القرون المنصرمة، ووظف رجالها الدين لقضاء مآربهم واحتكار حقيقة التأويل، والقطع مع التفكير اللاهوتي، والاعتماد على العقل كمنطلق أساسي للوصول إلى المعرفة.

وإجمالاً، فإنّ كوبرنيك لم يدشّن مرحلةً جديدة في العلم من خلال نظريّته، المتطيّرة الشّهرة، التي تعتبر الشّمس مركز الكون، متخلياً عن الاعتقاد السائد الذي زعم بأنّ الأرض هي قلب الكون، أو عبر تأكيده على كروية الأرض كما أكّد على ذلك أرسطو وبطليموس من قبله، بل إنّه قد قدّم أيضاً تفسيراً جديداً لنظام فصول السنة يختلفُ كلياً عن التصوّر الذي روّج له بطليموس.

لبسط الاختلاف بين التصورين السابقين، فيما يخص نظام فصول السنة، أجد أنّ بطليموس قد "استخدم الدائرة اللامتراكزة، أو مختلفة المركز، من أجل حلّ المشكلة. فأطول فُصول السّنة تختلف، ولكنّها أيضاً موزّعة على نحوٍ غير مماثل في أنحاء العالم. عندما يسود الصّيف في نصف الكرة الشّمالي، يسود الشّتاء في نصف الكرة الجنوبي والعكس بالعكس"[32]. بينما كوبرنيكوس سلك منحى آخر. فانطلاقاً من "الدّوران اليوميّ والحركة السنوية حدّد كوبرنيكوس ما يُسمّيه انحراف محور الأرض المتحرّكة (...) وهذا يُناسب حركة ثالثة إلى الأرض.

---

[32] فريدل فايرت، **كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخِ وفلسفة العلم**، المرجع نفسه، ص – ص 43-44.

وهذه الحركة الثالثة تُفسر تغير فصول السنة. لقد علل هذا الطرح الذي يزعم فيه "دوران الأرض لتفسير فصول السنة، فالأرض كوكب ولكنّها مُرتبطة بفلكٍ يحملها حول الشّمس، ومع ذلك، هذا يعني أنّ محور الأرض لا يبقى موازياً لنفسه"[33].

على سبيل الختم:

اجتمعت هذه الثورات الثّلاث على الجدّة والابتداع، وهذه إحدى أهم خوّاص الحداثة، فالثورة التي قادها كوبرنيكوس كانت ارتداداً على ما جاء به الأقدمون من نظريات وآراء، وقدّم نظرية مناقضة لما زعم به أرسطو وبطليموس مؤكداً على مركزية الشّمس معلّلاً ذلك بقرائن عقليّة ومنطقية مستساغة، ليقطع مع نُظُم وتمثّلات الأقدمين. وبهذا الاكتشاف الهائل استطاع كوبرنيكوس تدشين العلم الحديث الذي صار يفسِّرُ الظواهر بالاعتماد على "مفاهيم عامّة ومُجرّدة"[34]. عند الحديث عن الجدّة نجدها حاضرة بشكلٍ لافت في الثورة الدينية التي تزّعمها المصلح اللاهوتي مارتن لوثر من داخل الدين بثباتٍ كبير جداً. لقد بلور الإصلاح الدّيني مبدأ الذاتية، وتعزّز هذا المبدأ على يد الثورة الفرنسية خلال عصر التنوير، ومن خلال هذا المبدأ "أصبح الإيمان الدّيني (...) تأمُّلياً، وفي عزلةٍ الذّاتية، استحال العالم الدّيني إلى واقع مُشيّد من طرفنا نحن. وخلافاً للإيمان بسلطة التبشير والتراث، تؤكد البروتستانية على سيادة الذات المعتدة بقدراتها على التمييز: لم يعُد خبز الذّبيحة سوى عجين، ورُفات القدّيسين مجرَّد عظام"[35].

---

[33] المرجع نفسه، ص 45. (مع بعض التصرف).

[34] آلان بوثو، **مشكل الحداثة عند مارتن هايدغر**، ترجمة: عبد العزيز عبقري، مجلة: **مدارات فلسفية**، (المغرب، العدد 10، 2004).

[35] يورغن هابرماس، **الخطاب الفلسفي للحداثة**، ترجمة: محمد سهمي. ورد في: محمد سبيلا – عبد السلام بنعبد العالي، **الحداثة وانتقاداتها (نقد الحداثة من منظورٍ غربي)**، المرجع نفسه، ص 47.

الببليوغرافيا:

- أرسطو. الكون والفساد، ترجمة: أحمد لطفي السيّد، الدار القومية للطباعة والنّشر، القاهرة.

- العروي، عبد الله. نقد المفاهيم، المركز الثقافي للكِتاب، الدار البيضاء، ط 1، 2018.

- توشار، جان. تاريخ الفكر السياسيّ، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ترجمة: علي مقلد، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.

- تي فولمان، ويليام. وداعاً مركزية الأرض: كوبرنيكوس ودورات الأجرام السماوية، ترجمة: أسامة فاروق حسن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط 1، 2015.

- ديلو، ستيفن. التفكير السياسي والنّظريّة السياسية والمُجتمع المدني، ترجمة: ربيع وهبة، القاهرة، 2000.

- سبيلا، محمد – بنعبد العالي، عبد السلام. الحداثة وانتقاداتها (نقد الحداثة من منظورٍ غربي)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2006.

- شتراوش، ليو–كروبسي، جوزيف. تاريخ الفلسفة السياسية، ج 1: من ثيوكيديديس حتى اسبينوزا، ترجمة: محمود سيّد أحمد، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، ط 3، 2005.

- فاينرت، فريدل. كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخِ وفلسفةِ العلم، ترجمة: أحمد شكل، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط 1، 2019.

- لوثر، مارتن: http://www.lutherinarabic.org/freedom.htm

- لوك، جون. رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 1997.

- منظور، ابن. لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

- هندريكس، سكوت إتش. مارتن لوثر: مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: كوثر محمود محمد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثّقافة، القاهرة، ط 1، 2014.

- المعجم الوسيط، مجموعة مؤلّفين، مكتبة الشروق الدّولية، القاهرة، ط 4، 2008، ص 160.